فى أحضان الجليد

بقلم حسن الشريف

سكوت Scott قبطان من قباطين البحرية البريطانية، لا شيء فى ماضيه يلفت النظر اليه أو يميزه من غيره أو يعينه للمركز الذى قدر له أن يشغله فى التاريخ .

تنظر إلى صورته فترى وجها جامدا وقورا يحمل على الثقة والاحترام ، وعينين واسعتين حديدتى البصر رماديتى اللون تقرأ فيهما الاعتزاز بالنفس وقوة الإرادة ، وشفتين مطبقتين رقيقتين تمـان على الاصرار والمثابرة وقوة الشكيمة وشدة المراس .

وتنظر إلى خطه فيما يقع تحت يدك من كتابته فتقرأ كتابة مستقيمة واضحة لازواق فيها ولا زخرف ، تنبئك أن صاحبها رجل عملى صريح يواجه الأمور من نواحيها الجدية ولا يأخذ منها بغير المنتج والمفيد .

وتقرأ المذكرات التى خلفها عن رحلته إلى القطب الجنوبى، فتقرأ أسلوبا كأسلوب التقارير الرسمية : مختصرا سريعا خلوا من التخيل والمبالغة ولا أثر فيه من التعمل والصناعة ، ولكنه بالرغم من ذلك أسلوب محكم قوى مؤثر يقنعك ولا يغويك و يستدرجك ولا يستهويك .

وانك لتتأمل فى كل ذلك فتخرج منه بأنك حيال رجل من أولئك المقاديم الأجرياء الذين يظهرون الفينة بعد الفينة فى حياة الشعب الانجليزى فيعيشون عيشة الأبطال ويموتون ميتة الأبطال ولو أنهم لا يعرفون فى انفسهم تلك البطولة التى يعترف لهم بها الناس . وهؤلاء المقاديم الأجرياء هم الذين شيدوا الامبراطورية البريطانية .

كان سكوت قد صحب الرحالة شاكلتن فى رحلة غير موفقة لاستكشاف القطب الجنوبى لم يستطع أن يمضى فيها إلى أبعد من خط العرض السابع والثمانين . ولكن الخيبة التى منيت بها تلك الرحلة والتى من شأنها أن تحطم عزيمة أقوى الرجال ، لم تثن همتـه ولم تفل إرادته بل حملته على التفكير فى القيام برحلة جديدة لعلها تنال حظا من التوفيق .

وإذ كانت مغامرة شاكلتن قد أتاحت له أن يعرف أسباب فشلها ووسائل تجنب هذه الأسباب، وأن يدرك صعوبات المناطق المتجمدة وما يقتضيه ارتيادها من التأهب والاستعداد، فقد أخذ يدرس مشروعه على ضوء تلك التجارب والمعلومات كما يدرس رجل المـال عملية

تجارية فيضمنها ألف حساب لألف محذور، أو كما يدرس القائد خطة حربية فيتخذ مالا نهاية له من الاحتياطات توقعا لما لا نهاية له من الطوارئ أو المفاجئات .

كان يعلم أن الرحلة كما تصورها تستغرق بضع سنين وتطلب كثيرا من التكاليف وطائلا من المال ، فباع كل ما كان يملك ، واستدان ما استطاع أن يستدين ، وشرع يعد العدة ويتخير الأعوان . فلما تمت له الأهبة واجتمع حوله الرفاق ، ودع زوجته الشابة وطفله الرضيع وأقلع فى اليوم الأول من شهر يونيه سنة ١٩١٠ موليا وجهه شطر البحار الجنوبية والعالم المجهول.

سارت به السفينة تحمل عشرين رجلا من خيرة العلماء المتخصصين فى مختلف العلوم ، وعددا كبيرا من الكلاب والبراذين المدربة على حمل الأثقال وجر الزلاقات ، ومعملا للطبيعة والكيمياء مستكملا أحدث الأجهزة والعدد والآلات ، ومكتبة عامرة بالكتب فى كل فرع وباب ، وكلا وألواحا من الخشب وأدوات كاملة للبناء وخياما وحبالا وأوتادا وأسلحة وكل ما تحتاج اليه الرحلة من طعام وشراب ولباس وغراء .

ولعل القارئ يعرف أن ديسمبر ويناير هما عز الصيف فى المنطقة المتجمدة الجنوبية لأن الشمس تسطع فيهما بضع ساعات من النهار فتنير بياض الأرض بنورها الباهت وتبعث فى الكائنات دفئا نسبيا يلطف من قسوة البرد وشدة الزمهرير .

ولقد بلغ سكوت وأصحابه حدود تلك المنطقة فى أواخر شهر يناير من عام ١٩١١ أى بعد انقضاء الصيف ، فتعين عليهم أن ينتظروا الصيف الجديد فى ذلك المكان حتى يتيسر لهم أن يجتازوا الشقة التى تفصلهم عن القطب فى ضوء الشمس ودفئها .

وغادر القوم سفينتهم ونزلوا فوق الجمد وشيدوا عليه بيتا من الخشب يختلف عن ذلك الذى ابتناه شاكلتن بما أدخل عليه من مستحدثات السكنى ومبتدعات المدنية لترفيه الحياة وتوفير أسباب الراحة فى الاقامة . فبعد أن كان سابقوهم إلى تلك الأصقاع يستضيئون بمسارج ذات فتيل ينبعث منه سخام كثيف ورائحة تؤذى الأنوف ويقضون أشهر الانتظار فى غسق دائم لا يعملون شيئا ولا يتلهون بشىء ، صار هؤلاء يستصبحون بغاز الاسيتيلين الذى ينشر النور الأبيض والدفء بين جدران الحجرات ، ويتلهون بما تعرضه الآلات السينمائية على أعينهم من مناظر البلدان والناس ، ويغنون على نغمات البيانو ويستمعون إلى ألحان الجراموفون ويطالعون الكتب التى أتوا بها فتمدهم بما هم فى حاجة إليه من المعلومات .

وقد قسم البيت إلى غرف منها ما هو للنوم أو لتناول الطعام ومنها ما أعد للأشغال والدراسات . فهذه غرفة للأعمال الكتابية صفت فيها المكاتب والآلات الكاتبة ، وتلك غرفة مظلمة لتحميض الأشرطة والصور الفوتوغرافية ، وهذا مرصد للأحوال الجوية

والظواهر الطبيعية ، وهنا معمل للاختبارات والتحاليل الكيميائية ، وهناك معمل للأبحاث الجيولوجية يفحص فيه العالم المتخصص فى علم طبقات الأرض ما صادفه من المواد المعدنية الغريبة ، وذلك معمل آخر يلاحظ فيه عالم الحشرات ما لقيه من الطفيليات على أجسام الطيور القطبية المعروفة باسم "البطريق" "Pingouin" .

وإذ كان لا يزال بينهم وبين حلول الصيف أشهر طويلة يقضونها فى هذا المكان، فقد وزعت عليهم الأعمال وقسمت بينهم الواجبات وتعين على كل من العلماء أن يوافى زملاءه بما تصل اليه معلوماته ومباحثه وتجاربه فى أثناء النهار . فكانوا يجتمعون كل ليلة بعد العشاء ليستمعوا إلى أحدهم يحاضرهم فى موضوع علمى أو يطالعهم بشىء جديد . فإذا كان الصباح خرجوا للرياضة أو للاستكشاف جماعات فيتدربون على الانزلاق ويحفرون الجليد ليفحصوا طبقاته ويسوقون الزلاقات تجرها الكلاب أو البراذين ويجربون نصب خيامهم فى العراء ليعرفوا مبلغ مقاومة أوتادها لهبوب الرياح . فإذا أقتم الجو وأقبل الليل عادوا إلى البيت فرحين متهللين . وإن لمن الشائق حقا أن نقرأ بقلم القبطان سكوت تعليقاته اليومية على أشياء وحوادث تبدو لنا حقيرة أو تافهة ولكن لها فى حياتهم العجيبة أهمية كبيرة . فموت برذون أو طفو حوت أو اجتماع عدد من البطاريق حادث جدير بالذكر يدعو إلى الاهتمام . أما ظواهر الطبيعة التى تبهر العقول والأنظار كالفجر القطبى وتفاعل أضواء الكواكب على بياض الثلج أو أعراض الجو التى تفتك بالجسم وتشل الحركة ، فأشياء عادية لا تستحق التدوين .

انقضت أيام الخريف والشتاء والربيع مابين فبراير ونوفمبر على هذه الحال . حتى إذا كان يوم من أيام شهر أكتوبر خرجت سيارة منهم للاستكشاف ناحية الغرب فإذا بها تعود مسرعة وتنبىء الجماعة أنها عثرت هنالك بخيام، وأن هذه الخيام للرحالة النرويجى "أمندسن" وقد خلفها وراءه ليستخدمها عند العودة .

وكان سكوت يعلم أن أمندسن قد اعتزم القيام برحلة الى القطب ولكن لم يدر بخلده أن هذا المنافس قد اختار لرحلته نفس الوقت الذى اختاره . فلما جاءه اخوانه بهذا النبأ هاله الأمر ونشر الخارطة وبحث عن النقطة التى عينها أصحابه وقالوا إنهم وجدوا فيها الخيام فعلم أن النرويجى قد قصد الى القطب من طريق آخر وأنه سبقه اليه بمرحلة لا تقل عن مائة وعشرة كيلومترات .

ولو أن الصاعقة نزلت على رأس سكوت لما أفزعته كما أفزعه ذلك الخبر ، فبات ليلته يتلوى على فراشه كالملسوع لا يغمض له جفن الا ليرى شبح أمندسن وهو يسير أمامه الى الهدف وينشر راية بلاده على ذلك المكان من الأرض الذى لم تطأه قبله قدم إنسان .

وهنا يتناول سكوت يومياته ويكتب : " جئنا فى رحلة فإذا بنا فى سباق . إن أمندسن يتقدمنا بمسافة لا يستهان بها ولكن يجب أن نسبقه وإلا فلا خير فى كل مافعلناه حتى الآن" ثم يهيب باخوانه النيام : " هيا أيها الرفاق فان شرف انجلترا رهين ماتحرزون من نجاح" .

ولشدما سر القوم عندما هبوا من نومهم ونظروا الى الأفق فرأوا مكللا بكلة متعددة الألوان زاهيتها تبهر العين وتملأ النفس روعة وبهجة . ذلك هو الفجر القطبى الذى ترسم ألوانه أضواء الشمس من وراء الأفق على أديم السماء فيظل منظرها البديع ماثلا أمام العيون حتى يطل القرص الذهبى من ثنايا تلك الكلة فيبددها شيئا فشيئا .

ويملأ القوم نواظرهم بهـذا المشهد الأخاذ بشير ظهور الشمس بعد احتجاب تسعة شهور، وتتهلل وجوههم عندما يتكشف الأفق عن قرص الشمس الذى يرسل أشعته فيغمر ذلك السهل الفسيح ويكسوه من نوره الباهت مايكسبه لون المعدن البراق .

لقد دقت ساعة المسير بعد طول القعود وآن للقافلة أن تبدأ رحلتها نحو القطب فالصيف قصير والأيام المشمسة قليلة وهنالك أمنـدسن يسرع الخطو ويحاول أن يكسب الشوط فى ذلك السباق الرهيب .

وينظم سكوت خطة السير للذهاب والعودة ، فيقسم الطريق الى محطات بين الواحدة والتى بعدها سفر يومين، ويجعل عند كل محطة مستودعا للزاد والثياب والبترول. ويرى أن القافلة لا تستطيع أن تحمل معها مايكفيها من المؤونة والأمتعة طيلة الأسابيع التى تستغرقها الرحلة، فيقرر أن يؤوب عشرة من الجماعة من منتصف الطريق على أن يلحق بهم خمسة أخر عندما يبلغون خط العرض السابع والثمانين ويمضى الخمسة الباقون الى القطب بما يكفيهم وحدهم من المؤونة فى الذهاب والإياب .

وتبدأ القافلة سيرها فى اليوم الأول من شهر نوفمبر سنة ١٩١١ ، فتنطلق الزلاقات الميكانيكية فى الطليعة وتتبعها مركبات النقل الثقيلة تجرها البراذين ثم مركبات النقل الخفيفة تجرها الكلاب . ولكن القوم لايكادون يقطعون المرحلة الأولى حتى تواجههم المشاكل والصعوبات فتتعطل محركات الزلاقات فيضطرون الى التخلى عنها وتركها فى الطريق، ويتضح لهم أن البراذين التى أتوا بها من سيبريا لا تقوى على تحمل المشاق بالقدر الذى توهموه فيضطرون الى قتل مايمرض منها وإلقائه طعاما للكلاب ، ويشتد عليهم البرد وتسوء حالة الجو فلا يتمكنون من قطع ثلاثين كيلو مترا فى اليوم وقد كانوا جعلوا حسابهم على أن يقطعوا أربعين . وتتراكم على نفوسهم فوق هذه الهموم المادية هموم معنوية تتزايد وتتكاثر كلما ذكروا أن العدو النرويجى يجد فى السير وقد يبلغ القطب قبل أن يبلغوه . وتتعاظم فى نظرهم أقدار الأشياء التافهة

حتى ليروا الخطر الأكبر فى أصغر الحوادث : فموت بزون أو فرار كلب أو امتناع دابة عن الطعام حادث يزعج النفس ويشغل البال، وريح تهب أو عاصفة تثور أو سماء مربدة بالغيم قد تعوق السير وتؤدى الى القعود، وهل بعد القعود الا الخيبة والخذلان؟ ألم يتحول مجرى التاريخ وينقلب مصير أعظم الرجال ويتغير مآل أكبر الحوادث فى لحظات مشئومة طرأت فيها طوارئ لم تدخل لفرط تفاهتها لأحد فى حساب ؟

وتعتل حواس الرحالين وتتناقص قواهم بفعل عناصر الطبيعة فيضعف نظر بعضهم من شدة لألاء الجليد تحت أشعة الشمس وتتجمد أطراف آخرين من قسوة البرد وفعل الزمهرير .

ويبلغون منتصف الطريق وهم على هذه الحال من الضنى والشقاء فينفصل فوج العشرة الأول عن الجماعة ويقفل راجعا، ويستأنف العشرة الأخر المسير ليقتحموا أسوار الجليد التى تحجب منطقة القطب عن الأبصار . وهنا يتعذر المضى فى الطريق اذ الجمد صلب مغطى بقشرة خشنة محببة بحبوب ذات رءوس حادة كرءوس الحراب تعوق انزلاق الزلاقات وتفرى مرا كبها فتتساقط البراذين على الأرض أعياء وتقصر قوى الكلاب عن جر المركبات فيجزها الرجال . ولا يزالون كذلك يغالبون الطبيعة الجائرة ويقطعون من الطريق مراحل قصيرة حتى يبلغوا خط العرض السابع والثمانين وهو النقطة التى انتهت اليها رحلة شاكلتن والتى عينها سكوت ليتخير عندها الأربعة الذين يرافقونه الى القطب ويفصل عنه الخمسة الذين يعودون ليلحقوا بزملائهم الأولين .

ويقع اختيار سكوت على أربعة هم أوتس وباورز وويلسن وايفانس ويقف إلى جانبهم ليودع الخمسة المحكوم عليهم بالعودة فيقرأ فى أعينهم الحسرة التى تنهش أفئدتهم وهم يحرمون شرف الوصول الى القطب مع اخوانهم وقد صاروا منه جد قريبين، فيتسامى الدمع الى عينيه ولكنه يحبسه فى مآقيه ويسرع فى توديعهم ويحز الأربعة المختارين وراءه جرا حتى لا يطول ذلك المشهد الأليم . وتفترق الشرذمتان فتتجه الواحدة جنوبا صوب المجهول وتتجه الثانية شمالا صوب الجماعة والأمان ، وتظل كل واحدة منهما تتلفت الى الأخرى ملوحة بالأيدى والمناديل حتى تغيب عن نظرها . وعندئذ تمحى الابتسامة المفتعلة من شفتى سكوت ويعود اليه عبوسه وقطوبه فيضرب الجليد بعصاه ويصيح : الى الأمام .

ويمضى الخمسة فى سبيلهم الى القطب كخمس نقط سوداء مبعثرة فى ذلك القفر الابيض الذى لا تشوف العين أوله ولا تأتى على آخره، يستنشقون هواء مثلجا لم يستنشقه قبلهم انسان منذ خلق الله الأرض ومن عليها . فاذا وقب الليل نزلوا من زلاقاتهم ونصبوا خيامهم وأقاموا من الجليد سورا يقى الدواب عتو الريح الباردة ودخلوا فى أكياس مبطنة بالفرو يربطونها عند الرقبة ويستلقون على فراشهم الى الصباح .

وتستولى على نفس سكوت فى تلك الأيام الأخيرة حالة قلق شديد لعلها حالة من يشعر أنه شارف الغاية وقارب النهاية ، فيطيل النظر الى البوصلة و يرى عقربها الأزرق يضطرب على مينائها البيضاء و يزداد اضطرابا كلما اقترب من القطب ، فيتساءل فى يومياته : " أليس لهذا العناء من آخر ؟ " و يقيس على الخارطة المسافات الباقية و يدونها يوم بعد يوم فيكتب فى جريدته : " لازلنا على بعد مائة وخمسين كيلو مترا وأغلب ظنى أننا لن نصل الى نهايتها إذا استمرت الحال على ماهى عليه ". و يسيرون يومين فيقعد بهم الإعياء فيتسيح : " أمامنا مائة وسبعة وثلاثون كيلو مترا ، ما أطولها وأقساها ! " و يستأنفون المسير ويشتد بهم القلق على المصير فيكتب : " لم يبق سوى ثمانين كيلو مترا ونبلغ القطب ، فماذا يكون لو قدر علينا ألا نبلغه ؟ " ، ثم يتسرب الى نفسه القلقة شعاع من الأمل يضيئها فيهتف من أعماق قلبه " العون يارب على السبعين الباقية ! " حتى إذا لم يبق غير خمسين كيلو مترا ملأ الأمل فؤاده فيصيح : " الشقة الباقية وعرة ولكن الظفر قريب و إن هو الا مجهود أخير وتكلل الرحلة بالفوز فنرفع الستر الذى يغطى هذا الجزء المجهول من جسم الأرض " .

وفى السادس عشر من شهر يناير سنة ١٩١٢ يهبون من نومهم مبكرين وقد انتزعتهم الآمال من أكياسهم قبل الميعاد الذى ألفوا أن يستيقظوا فيه ، و يسيرون جادين فى السير حتى يقطعوا المرحلة الأخيرة ولا يبقى بينهم و بين المحور الذى تدور الأرض حوله الا مسافة يأتون على آخرها فى ساعة و بعض الساعة فيأبون الا أن يجتازوها راجلين .

لقد تمت المعجزة أو هى على وشك التمام وصار النجاح أمرا أكيدا لاسبيل الى الشك فيه فالى الأمام !

و يسير سكوت فى الطليعة و يحدق النظر فى الأفق فيرى شيئا لا يعرف ماهو ولكنه شيء كالنقطة السوداء فى نهاية ذلك البياض المترامى الأطراف ، فيستولى عليه قلق لا يلبث أن يستحيل خوفا ثم ذعرا ثم هلعا . وتعتريه رعدة يحاول أن يغلبها فتغلبه ، و يجيل حدقتيه فيمن وراءه فيراهم أيضا قد شخصت أبصارهم الى ذلك الشيء يريدون ان يتبينوه ، فيسائلهم بالنظرات ولكن أعينهم تحاشى التلاقى بعينيه ، ثم تمتقع وجوههم و يستغرقون فى ذهول شديد .

و يمعنون فى السير وكل منهم يخادع نفسه فيما يرى و يريد أن يكذب بصره فيعتصم بالصمت و يوسع خطاه و يسائل الله فى سره : " ماهذا الذى أرى يارباه ؟ " .

و يستجمع " باورز " شجاعته و ينظر الى صاحبه " أوتس " و يقول : " هل ترى شيئا ؟ " فيجيب أوتس وهو يتلعثم وقد جف لعابه فى حلقه وتحشرج صوته فى حنجرته :

"نعم ولعله شق فى الجمد أو سراب أحدثه تفاعل الألوان". ويمد سكوت عينيه ويقف بغتة ويترنح على ساقيه وينشر ذراعه ويشير بأصبعه الى الشيء ويقول : " إنها راية " .

ويوقن كل واحد من الخمسة أن الفكرة التى ساورته قد ساورت جميع الاخوان ، وأن أحدا منهم لم يكن واهما ولا مخدوعا عندما أدرك أن النقطة السوداء ليست سوداء وإنما هى ذات ألوان ، فيندفع سكوت عدوا الى الأمام ويجرى وراءه سائر الرفاق يريدون أن يستجلوا الحقيقة ويقطعوا الشك باليقين .

ويزول الشك أمام الحقيقة الماثلة وينهار صرح الأمل من وقع صدمتها الهائلة . فان الشيء الذى ودوا لو يكون سرابا أو شقا فى الجليد لم يكن إلا علم بلاد النرويج وقد علقه امندسن فوق سيارية غرسها فى الجمد ليسجل لنفسه استكشاف القطب الجنوبى وليسجل لبلاده احرازها قصب السبق الى امتلاك هذه الأصقاع .

إذن فقد وصل سكوت مصليا فى حلبة لا اعتبار فيها الا للجلى فما قيمته بعد ذلك وماقيمة رحلته وبلوغه القطب مادام غيره قد سبقه اليه ؟

وينظر القبطان الى أصحابه فيرى وجوها كاسفة وسحنا علاها الذهول فيتغلب على يأس نفسه ويحاول أن يسرى هم رفاقه فيبتسم ويقول : " لو أنا قصرنا أيها الاخوان لحق لنا أن نحزن ، ولكن ما حيلتنا إذا كان غيرنا أسعد منا حظا وأكثر توفيقا ؟ " .

يا خيبة الأمل ويا ضيعة الرجاء ! أمن أجل هذا باع ما كان يملك واستدان ؟ أمن أجل هذا هجر زوجته وطفله وتحمل أشق الجهود وأقسى الآلام ؟ أمن أجل هذا فقد منصبه فى البحرية وضحى برزق عياله وأضاع من عمره حولين فى هذا القفر القاتل ، وبين تلك الأهوال الشداد ؟

كانت بالقرب من السارية التى تحمل العلم خيمة منصوبة فدخلها فوجد كتابا فى غلاف مثبت بمسمار فى عمود الخيمة يحمل امضاءة امندسن ، وقد كتب على الغلاف : " قد أقضى نحبي وأنا فى طريق عودتى الى بلادى ، فأرجو من أول انسان يصل بعدى الى هذا المكان أن يحمل هذه الرسالة الى الملك هاكون ملك النرويج " .

ويضع سكوت الرسالة فى جيبه ويقسم ليحملنها بنفسه الى الملك شاهدة على فشله وفوز منافسه ، ويقف هنيهة يجيل الطرف فى هذه البقعة التى يسميها الجغرافيون طرف المحور فيلاحظ فى أرضها آثار أقدام ودمنا ومخلفات تدل على أن الذين أتوا قبله الى هنا لم يسبقوه إلا ببضعة أيام ، فتنطلق من صدره زفرة حارة وينظر الى القطب نظرة عاتبة ، نظرة المحب الى المحبوبة التى كان يحسبها بكرا معصومة ، فاذا هى قد استبطأته فاستسلمت لأول طالب ، فيحول عينيه عنه ويهيب بأصحابه : " هيا أيها الرفاق " .

ويتناول العلم البريطانى ويغرس ساريته فى الجليد الى جانب علم الترويج ويلقى على العلمين نظرة أخيرة ويعود أدراجه منكس الرأس محزون النفس مكلوم الفؤاد .

أما القطب الخائن فلا يستحق منه بعد ذلك اهتماما ، فهو لا يصفه ولا يتحدث عنه فى مذكراته بغير هذه الكلمات : " ليس فى هذا المكان ما يستوقف النظر ولا ما يغير شيئا من مناظر هذه المنطقة الرتيبة المتشابهة " .

وتنطلق الجماعة صوب الشمال والريح الباردة العاتية تدفع ظهورهم الى الأمام فيعود القلق الى نفس سكوت فيكتب فى يومياته كما لو كان حجاب الغيب قد انقشع أمام عينيه : " إن العودة تخيفنى وانى لمتوجس منها شرا " .

وتتضافر عليهم الصعوبات والمخاطر فى طريق العودة : لقد كانت البوصلة تقودهم فى الذهاب . أما فى الإياب فعليهم أن يسلكوا نفس الطريق الذى أتوا منه وأن يقتفوا الآثار التى خلفتها أقدامهم على الجليد لتهديهم الى المحطات والمستودعات ، فلا عجب أن هلعت قلوبهم ، كلما ثارت زوبعة من الثلج فزوابع الثلج تغشى الأبصار وهم ان ضلوا السبيل ساروا الى الهلاك ما فى ذلك شك ولا ريب . وبعد فقد فقدت أجسامهم كثيرا من نشاطها ومن قدرتها على المقاومة وباتت لا تحمل ما كانت تحمله حين توافر الطعام الدسم الوفير . ولو أن الخطب وقف عند حد الجسوم لهان ، ولكن ارادتهم قد وهنت واعتلت كأنما حطمت الخيبة زنبركها وكسرت نابضها فهى توشك أن يصيبها العطل وتقف عن الدوران .

لقد كانوا فى الذهاب يسعون الى تحقيق أمل عز تحقيقه على بنى الانسان ، وكانوا يريدون أن يسبقوا الأمم الى هذه القارة المجهولة ليقترن اسم انجلترا بأعظم استكشاف جغرافى عرفه التاريخ ، فكانت هذه الاعتبارات السامية تضاعف قواهم وتمدهم بالصبر والمثابرة ، كلما أجهدهم السير أو قعد بهم الإعياء . أما الآن ويا حسرتاه فليس ثمت فكرة عزيزة تقودهم ولا غرض عظيم يسعون إليه ، وهم إنما يجاهدون الطبيعة ويكافحون عناصرها لينقذوا أرواحهم من الهلاك ، ولكن ما قيمة الأرواح بعد هزيمة تقصم الظهر وخيبة تبغض الإنسان فى الحياة ؟

وتسرد "اليوميات" تفاصيل مأساة العودة وإنها لمأساة تستثير الشجن وتدمع العيون : حالة الجو تسوء وتزداد سوءا يوما بعد يوم ، وقد عاجل الربيع القطبى تلك الأرجاء وربيع القطب كشتائه يشتد فيه البرد وتكثر الزوابع الهوج فيملق الثلج بنعالهم وينجد عليها فينقل خطوهم ويعوق سيرهم فلا يبلغون أحد مستودعاتهم إلا بشق النفس وبعد الجهد العسير . ولكنهم كانوا يتواصون بالصبر والشجاعة على تحمل المشاق والآلام . ولم تكن وعثاء السفر

ووعورة الطريق لتصرفهم عن أن يستفيدوا من رحلتهم كل ما يمكن أن يستفاد . ولعمرى أن قارئ " اليوميات " ليقف إجلالا لتلك البطولة المعنوية التى كانت تجمل أولئك الخمسة المستهدفين لكل أنواع الموت المشردين فى ذلك القفر النائى ينسون ذواتهم ويتلكؤون فى الطريق ليفحصوا ظاهرة طبيعية غريبة أو لينتقطوا معدنا جديدا يضيفونه الى المجموعة التى تصيدوها فى الذهاب والإياب . ومن ذا الذى لا يخنى احتراما لذكرى العالم الجيولوجى ويلسن عند ما يعلم أنه بدلا من أن يتخفف من أثقاله قد زادها ستة عشر كيلوجراما من المعدنيات ؟

بيد أن شجاعة الانسان لا تثبت طويلا أمام قسوة الطبيعة ، ولقد أشهرت الطبيعة على الخمسة المستشهدين كل أسلحتها الفاتكة : البرد والريح والجليد فأذبلت جسومهم وأنهكت قواهم ثم جاءت قلة الزاد فزادتهم نهكا وذبولا إذ اضطرتهم إلى التوجب والاقتصاد .

ولقد هالهم يوما أن رأوا صاحبهم ايفانس — وكان أكثرهم نشاطا وأقواهم بنية — يترنح فى مشيته ويأتى بحركات غريبة ويدور حول نفسه ويتلفظ بكلام غير ذى معنى وينظر إليهم كالمشدوه . لقد جنّ الرجل من فرط العذاب فهل يقتلونه ليريحوه كما لو كان كلبا أو برذونا أو يمكثون إلى جانبه فيهلكوا جميعا أو يحملونه معهم وهم لا يقوون على حمل ما لا غنية عنه من الزاد والمتاع ؟

ولكن هذا الهم لا يطول إذ يوفر ايفانس على أصحابه مشقة التفكير فى حالته ويسقط ميتا فى السابع عشر من شهر فبراير فيحفر له الأصحاب قبرا فى الجليد ويهيلون عليه الثلج ويغادرونه والأسى يقطع منهم نياط القلوب .

ويستأنفون السير بعد إذ صاروا أربعة حتى يبلغوا المستودع فيجدون كمية البترول المودعة فيه قليلة لا تكفى فيضطرون إلى الاقتصاد فى إحراقها للتدفؤ وإلى تقسيمها على عدد الأيام التى سيقيمونها فى المحطة ، والبترول هو الوسيلة الواحدة للحصول على الدفء . فى تلك الأصقاع التى لا سبيل فيها الى شىء من سائل التدفئة الحديثة .

ويجدون فى المسير أياما أخرى ويبلغون المستودع الأخير ولا يبقى بينهم وبين الرفاق المنتظرين عند بداية خط السير سوى مسيرة يومين أو ثلاثة أيام ، ولكنهم يلاحظون أن كمية البترول المودعة فيه أقل من تلك التى وجدوها فى سابقه ، فيتبدى أمامهم شبح الموت باسطا ذراعيه ويبدأ الخوف على الحياة يدب الى قلوبهم واليأس من النجاة يستحوذ على نفوسهم ، فيحاول القبطان سكوت أن يشجعهم أو يهدئ من روعهم ولكنه اذا خلا بنفسه وأوراقه لم يسعه الا أن يدون الحقيقة التى يلمسها ويراها ماثلة أمام عينه ، فيكتب فى يومياته :

" لا أظننا نصبر على هـذه الحال طويلا " ثم تتعدد صيحات الألم فنقرأ : " أغلب ظني أن هذه المغامرة ستنتهي الى مأساة " ، " أدركنا برحمتك يارب فقد صرنا لا ننتظر العون من انسان " ، " لقد بلغت أرواحنا الحلاقيم " . ثم يواجه الحقيقة المفزعة فيقررها بذلك الجأش الرابط الذى نعرفه فى الانجليز فيقول : " نحو صائرون الى الموت " .

ويصحون من نومهم متجمدى الأطراف متصلبي المفاصل لا يقوون على النهوض بله المشي فيسيرون متثاقلين ولكنهم لا يكادون يخطون بضع خطوات حتى يروا أن صاحبهم أوتس قد بلغ به الأعياء حدا جعله يجر قدميه ويمشي وراءهم كمن تنوء به أحمال ثقال ، ثم يرتمي على الأرض ويتمتم بصوت خافت : " دعونى هنا وليكتب الله لكم السلامة " . وهنا يقع الثلاثة الآخرون فى حيرة جديدة ، فلا قلوبهم تطاوعهم على تركه ولا هى تطاوعهم على المكث معه فى ذلك المكان الذى تهبط درجة الحرارة فيه الى الثانيـة والأربعين تحت الصفر . ويشعر الرجل أنه صار عبئا على إخوانه بعد أن كان عونا لهم ، ويرى أن بقاءه بات خطرا على حياتهم فيتوسل اليهم أن ينجوا بأنفسهم فيأبون فيحمل نفسه من الجهد ما لا تطيق ويظل يجر قدميه وراءهم الى أن تخـذله ساقاه فيقع فيعودون به الى المستودع ويقضون ليلتهم وهم يقاسون الام البرد الشديد .

وقبيل الصبح يرون وتس ينهض من فراشه ويتسلل الى خارج الخيمة فيسألونه الى أين ؟ فيجيب : " سأغيب عنكم قليلا فـلا تقلقوا " فتعتريهم رعدة وتذوب حبات قلوبهم إشفاقا عليه ويعلمون ما وراء خروجه ولكن أحدا منهم لا يقوى على أن يمسك به ليمنعه ولا أن يمد اليه يدا للتوديع ، فيدعونه يذهب الى المصير الذى رضيه لنفسه ولا تمضى برهة حتى يطرق آذانهم صوت طلق تارتى فيذهبون لا ستطلاع خبره فيرونه جثة هامدة ممـددة فوق الجمد مصبوغة بدم غزير .

وها هم الآن ثلاثة ضعفاء خارت قواهم ويئسوا من كل شيء ، يقطعون قفرا يمدون البصر فلا يرون له نهاية ، يظلون طول النهار سائرين على أقدامهم حتى اذا جن الليل وغابت عن أعينهم علامات الطريق نصبوا خيمتهم وطهوا طعامهم وتدفأوا بما تيسر من البترول .

ويحاول هؤلاء الثلاثة بلوغ البيت الخشبي حيث يوافون الرفاق المنتظرين وحيث يجدون الدفء والطعام . ولكن يأبى حظهم العـاثر الا أن تسوء حال الجو وتهب الرياح وتثور عواصف الثلج فتحول دون مبارحتهم الخيمة فيلزموها آملين أن تتحسن الحالة قريبا فيستأنفوا المسير . وتمضى الليلة تلو الليلة والحالة لا تتحسن فيقل الزاد وينفد البترول ويهبط مقياس البرودة الى الدرجة الأربعين فيتضاءل الأمل فى النجاة ولا يبقى أمامهم الا الموت بردا وجوعا .

و يقضون على تلك الحال ثمانى ليال حتى اذا كان الثامن والعشرون من شهر مارس أيقنوا أنهم لا محالة هالكون وأنهم لن يفلتوا من براثن الموت الا بمعجزة غير منتظرة وأن ليس فى وسعهم الا أن يواجهوا هذا الموت فى أبشع صوره وأقسى أشكاله ، فيقررون أن يبقوا حيث هم وأن يستقبلوا النهاية المريرة فى شجاعة واستسلام . وعندئذ يدخلون فى اكياسهم المبطنة بالفراء و يستلقون على فراشهم لا يرجون شيئا ولا يؤملون فى شىء .

و يدخل الثلاثة فى طور الاحتضار . ولو قدر لأحد من الناس أن يراهم يومئذ لرأى شيئا عجيبا : ثلاث لفافات ضخمة من الفراء فيها ثلاثة رجال اشتدت بهم تباريح البرد والجوع واليأس فهم يعانون سكرات موت بطىء يأبى أن ينقض عليهم لينقذهم من هول ماهم فيه ولكنه يدنو منهم رويدا رويدا حتى ليحسون دنوه ولو استطاعوا لمدوا اليه أذرعهم مستعجلين مرحبين .

أما القبطان سكوت فلا ينسيه هذا الهول أن له أسرة ووطنا وأن من حقهما عليه أن يخصهما باللحظات الأخيرة من حياته و بالفكرة الأخيرة التى تساور عقله ، فيخرج يديه من فرائه و يتناول القلم و يكتب .

يكتب الى امرأته فيوصيها بولدهما و يتوسل اليها أن تجنبه حياة الترانى والخمول وأن لاترى فى الميتة التى يموتها هو ما يدعوها الى الخوف على هذا الولد خوفا يبغض اليه المغامرة فى سبيل إعلاء شأن الوطن . و يحدثها عن رحلته فلا تبدر منه بادرة أسف لما لاقاه فيها و يقول : " ماذا تريدين أن أقص عليك منها ؟ انى لمغتبط بأنى قمت بها وأنى لمؤثر ذلك على القعود الهنىء بجانب الموقد فى بيتنا العزيز " .

و يكتب الى زوجات أصحابه والى أمهات اللذين سبقاه الى الموت منهم فيشهد أنهم عاشوا أبطالا وقضوا أبطالا و يحاول أن يعزيهن بحلو الكلام . ولعمرى إن أعجب فعجبى لهذا المحتضر الذى يعزى غيره و يصبره وهو أحوج الناس إلى التصبر والعزاء .

ثم يكتب إلى أصدقائه فيتواضع كلما تحدث عن نفسه ولكن العزة القومية تأخذه عندما يتكلم عن الوطن فيقول . " لا أدرى هل أستحق لقب المستكشف مصحوبا بأى نعت من النعوت ولكن الذى أدريه هو أن النهاية التى نقاسيها الآن تدل على أن الشجاعة ومواجهة الأخطار والصبر على المكاره واستعذاب الفناء فى سبيل الوطن فضائل لم يعدمها الانجليز .

ثم يوجه الخطاب إلى الأمة الانجليزية فى صراحة المستشهد الذى لا يجمل به أن يكذب ولا أن يموه ، فيفسر أسباب إخفاقه فى ذلك التسابق الذى علقت عليه انجلترا آمالا كبارا و يعلن أنه لم يتوان ولم يقصر و إنما هو توالى العوائق وتتابع الصعوبات واضطهاد الطبيعة قعد به عن السبق الذى لم يكن لولا ذلك ليشك فيه .

ولا يهتم فى السطور الأخيرة بحالته الأليمة ولا بالميتة الشنيعة التى يعانيها وإنما يهتم بحياة الآخرين فتنبعث من صدره المتصدع الخائر تلك الصيحة الى أبناء وطنه : " نستحلفكم بالله ألا تنسوا أولئك الذين نخلفهم بعدنا بلا عائل ولا نصير " .

وتجىء بعد ذلك كلمات متقطعة ثم حروف متباعدة ثم خطوط متعرجة . . . ثم يدب الموت الى اليد فتتجمد الأصابع ويسقط القلم .

* * *

كان الرفاق الآخرون مجتمعين فى البيت الخشبى ينتظرون عودة القبطان وأصحابه الأربعة طيلة أسابيع وأسابيع . ولقد انتظروهم أول الأمر فى ثقة وطمأنينة ، ثم أخذ القلق يدب الى نفوسهم ويشتد حتى لم يروا مندوحة من أن يوفدوا سيارة منهم للبحث عنهم أو لاستقصاء خبرهم . ولكن زوابع الثلج لم تمكنهم من المضى فى الطريق الى بعيد . وهكذا أمضت الجماعة طيلة الخريف والشتاء من أبريل الى أكتوبر فى البيت الخشبى لا تعرف شيئا عن مصير القبطان والذين معه . فلما طال بهم المطال وحل شهر نوفمبر سنة ١٩١٢ قرروا أن يخرجوا مرة أخرى لاستطلاع خبر هؤلاء النائين ، فسلكوا نفس الطريق الذى سلكوه وإياهم أول مرة ، وظلوا مجدين فيه حتى بلغوا الخيمة ووجدوا بها الجثث الثلاث متجمدة فى فراشها ، ووجدوا الكراسات التى كان سكوت يدون فيها مذكراته اليومية وقد كتبت عليها هذه العبارة " أرجو ممن يعثر بهذه الأوراق أن يحملها الى زوجتى " وكأنما أراد أن تكون عبارته مطابقة لحقيقة الواقعة فمر بالقلم على كلمة " زوجتى " وكتب بدلا منها هذه الكلمة الرهيبة " أرملتى "

وشق الإخوان لموتاهم قبراً فى الجليد غيبوهم فيه ورشقوا فى سطحه صليبا كتبوا أسماءهم عليه وحملوا الكراسات والأوراق والرسائل وعادوا الى بلادهم .

ولقد أبت المقادير العادلة الا أن تنصف سكوت بعد مماته وإلا أن تحدث ميتته الحادثة فى هذا الركن المجهول من الأرض رجة ودويا فى العالم كله . فقد عنى أصحابه أثر وصولهم الى انجلترا بنشر مذكراته ورسائله والصور الفوتوغرافية والأشرطة السينمائية للمناظر التى التقطوها فى رحلتهم فتخاطفتها المطابع وتناقلتها الصحف والمجلات فى سائر البلاد، وهكذا علم الناس ما كانوا يجهلون من أمر أولئك الأبطال الذين استشهدوا فى سبيل إضافة صفحة جديدة الى صفحات علوم البشر والكشف عن ذلك الجزء من الكرة الأرضية الذى لبث غير معروف لسا كنيها طيلة ملايين وملايين من السنين .

حسن الشريف